الرواية المغربية: الأصول والآفاق

كبور جميلة
مختبر الأبحاث المصطلحية والدراسات النصية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر مهراز –فاس
المغرب

مقدمة:

تعتبر الرواية فنا سرديا كباقي الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة القصيرة والمسرح...، احتلت الصدارة من حيث الدراسة والتلقي، وذلك راجع لقدرتها على تطوير أساليب السرد.

وعدّ الغرب المبدع الأول لهذا الفن الذي ظهر في أقطار البلدان العربية عن طريق الاستعمار، حيث عمل المستعمر الغربي على نشر ثقافته في الأوساط العربية، مما فتح روافد جديدة ساهمت في استحداث هذا الفن الأدبي.

فكانت الرواية الفرنسية والروسية والانجليزية في القرن التاسع عشر نموذج الرواية العربية في مرحلة تكونها وتطورها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وما لبثت أن أصبحت الرواية جنسا أدبيا معبرا عن الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية السياسية، والايديولوجية، بالبلدان العربية.

وعلى الرغم من الحضور التاريخي للرواية بالمشرق، فالرواية المغربية لم تكن غائبة عن هذا الحضور المتميز بهذه الصيغة أو تلك، لارتباط المشرق والمغرب بما يعتمل في الحقل الأدبي والفلسفي والسياسي في أوروبا وآسيا...، فالغرب اكتسح العالم العربي الإسلامي ونهل من تراثه العلمي والأدبي...، فأصبح المجتمع المغربي يتميز بتعدده اللغوي وتعقيدات إشكاليات المجتمع والأفق الحضاري، وتنوعه الثقافي وخصوبته.

تجلت البدايات الأولى للرواية المغربية في سير السجناء من الأدباء والمفكرين، وكذا في محاكاتها للواقع المغربي إبان الاستعمار لما عاشه من صراعات اجتماعية، وثقافية، وسياسية، ثم أخذت الأشكال الروائية بعد الاستعمار تتطور بتطور المجتمع والوعي بالشكل الروائي.

I. أصول الرواية المغربية:

إن الرواية كشكل أدبي متطور لم تظهر في عالمنا العربي إلا بعد الاجتياح الاستعماري لأقطارنا العربية المشرقية، وبالتحديد أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ بدأت تبرز المحاولات الروائية الأولى عند بعض المؤلفين بفعل الاحتكاك بالأدب الغربي وثقافته، ونذكر على سبيل المثال حسين هيكل في رواية "زينب" التي تعد البداية الحقيقية للرواية العربية، وبعد أن شاعت في أقطارنا العربية اتخذت مسارات متعددة غنية، ومتطورة، ومع تطور المجتمع انتشرت الروايات ذات الطابع الرومانسي، فنتوج هذا التراكم بظهور العديد من المحاولات الأولى منها: نصوص نجيب محفوظ وهي كتابات أعطت للرومانسية دورها الحقيقي، حيث جعلت من الفرد وحالاته الروحية الذاتية

مادة أدبية أدت إلى ولادة رواية الشخصية في شكلها الناضج واهتمامها بالحقيقة، وظهور الرواية الواقعية وميلها إلى تذوق الطابع المحلي التاريخي الذي ليس إلا مظهرا خاصا لتذوق الحقيقة.

لقد تأثرت الرواية على غرار الفنون الأدبية الأخرى بالنزعة الرومانسية، حيث أولت اهتماما كبيرا للجانب العاطفي، كما كانت تصور بوضوح البدايات الأولى للقلق الذي اعترى مثقفي الطبقة البورجوازية بعد فشل الثورة في تحقيق أهدافها الإنسانية، ولذلك كانت الرواية تعكس هموم الذاتية الفردية الخاصة، في واقع اجتماعي لم يعد فيه مكان للحرية الفردية، ومن ثمة كان الروائي حريصا على جعل أبطاله ينشدون العزلة ويهربون بعيدا عن آلام المجتمع، وقد كانوا من هذه الناحية يفضحون بشكل غير مباشر الواقع الاجتماعي الجديد الذي بدأ يحمل بذور الصراع بين الارستقراطية البورجوازية، والطبقات الصغيرة الفقيرة.

وبما أن الرواية الحديثة جنس أدبي مستحدث برز في الغرب والشرق للتعبير عن الحياة الاجتماعية والمعيش اليومي للأفراد والشعوب، فإن الرواية المغربية شهدت ولادة متأخرة عن نظيرتها الغربية والشرقية، مما جعل الدارسين يختلفون في تحديد تاريخ البداية الفعلية لظهورها.

ونظرا لانفتاح المغرب على الشرق والغرب فقد تأثر ظهور الرواية المغربية بعدة روافد ثقافية، وهذا ما يؤكده أحمد المديني" بقوله" كان المشرق العربي الهنا الثاني...أنه نصفنا الثاني"[1] ويقول إدريس الخوري" ونحن كجيل جديد شربنا من ينابيع هذه المصادر الشرقية التي كانت تخاطب فينا إحساسا معينا...إن المغرب جد مفتوح لكل التيارات الثقافية المتواجدة سواء في المشرق أو المغرب"[2].

أما المؤثرات الغربية فقد تجلت في الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، كما هو بارز في كتابات بعض الأدباء المغاربة منهم، الصفريوي، الطاهر بن جلون، عبد الكريم الخطيبي، إلا أن هذا الاتجاه بدأت تتناقص فعاليته بعد الاستقلال، في حين وجدت اتجاهات أدبية أخرى تتابع وتساير أحداث التطورات الفكرية والفنية في العالم الغربي.

أما بخصوص المكونات المغربية لعلها أقوى المؤثرات الفعالة في الأدب المغربي حيث تغذي برؤى الحركة الوطنية في عهد المقاومة، فصار الأدباء يعبرون عن الوضع المتأزم الذي يعيشه المجتمع المغربي وعن صور الاضطهاد والحيف والحرمان، مؤكدة خصوصية هذا الواقع وتميزه.

ولعل النص الروائي المغربي" في الطفولة" الذي صدر سنة 1957م لعبد المجيد بنجلون وهي سيرة ذاتية يرصد فيها الكاتب طفولته بانجلترا وبالمغرب، ويقارن بين مظاهر الحياة الحضارية في الغرب ومظاهر التخلف في المغرب أول عمل توفرت فيه مقومات الجنس الروائي ضمن خانة أدبية ظلت فارغة على مدى تاريخ تطور واستحداث الأجناس التعبيرية بالمغرب. إلا أن هناك من يرى أنه لا مانع من افتراض بدايات ممكنة مغايرة للرواية المغربية كمساهمة أحمد اليبوري من خلال ندوة بعنوان: "تكون الخطاب الروائي"[3] حيث قام برصد ما أسماه "بالخطاب الشبه الروائي" استنادا الى المفهوم الباختيني لتلاقح الأجناس. كما حدد أشكال النثر الأدبي في المرحلة التأسيسية (السيرة الذاتية، القصة التاريخية)معتمدا على نماذج منها " الزاوية للتهامي الوزاني، والروايات القصيرة لعبد العزيز بن عبد الله (الجاسوسة السمراء، شقراء الريف، غادة أصيلا، الرومية الشقراء،،،،)كما يتبنى إبراهيم الخطيب وجهة نظر أخرى حول البداية الممكنة لظهور الرواية، " لقد كتبت "سليل الثقلين" في فترة وجيزة ما بين(21يونيو-6 يوليوز)، ونشرت على صفحات جريدة "الريف" بدءا من العدد 1532 في شكل حلقات تقصر أو تطول دون ضابط، الأمر الذي يبين أن الكاتب قد شرع في نشرها قبل أن تكتمل نصا متماسكا، ثم نشرت كتابا في أبريل 1950م دون أي تغيير"[4]. وبالموازاة مع هذه المحاولة برزت أعمال روائية وقصصية أخرى، منها القصص التاريخية لعبد العزيز بن عبد الله(غادة أصيلا، الرومية الشقراء، الجاسوسة المقنعة، الكاهنة)وفي هذه الفترة كذلك بزغت كتابات روائية سير ذاتية منها نص" في الطفولة" للكاتب عبد المجيد بنجلون التي نشرت في شكل حلقات على صفحات " رسالة المغرب" وهو " عمل سردي سينتزع شرعية البدء الروائي لمشروع ابداعي ظل محجوزا لأسباب متعددة وهو الأمر الذي أفسح المجال أمام أسئلة من قبيل : ما الذي جعل المغاربة يبطئون بل يتأخر عندهم النوع الروائي إلى هذا الوقت"[5].

ولعل السبب في ذلك راجع إلى الجدل القائم بين ماهو سياسي وماهو ثقافي، حيث أن الاهتمام بالشؤون الثقافية يعد أمرا ثانويا مقارنة مع المجال السياسي، ورغم هذا التأخر فإن الفترة الزمنية ما بين 1942م تاريخ صدور "الزاوية" للتهامي الوزاني، ووتاريخ صدور " جيل الظمأ" 1967م لمحمد عزيز لحبابي، قد شهدت محاولات روائية عديدة، إذ يورد مصطفى يعلي في "ببليوغرافيا الفن الروائي بالمغرب"[6](1930-1984) ثمان وعشرين رواية صدرت على توالي السنوات.

ورغم تراكم هذه الأعمال الروائية خلال هذه الفترة إلا أن أغلبها نشر على شكل حلقات على صفحات المنابر الوطنية، ومنها ما لم ينشر لظروف معينة، وأما النصوص أعمال أكثر تطورا فهي قليلة ومعدودة على رؤوس الأصابع:

أ- "الزاوية، للتهامي الوزاني 1942م

ب- في الطفولة، لعبد المجيد بنجلون 1957م

ت- سبعة أبواب 1965و دفنا الماضي، 1966م لعبد الكريم غلاب"[7].

لقد استطاعت هذه التجارب السردية أن تمثل البدايات الحقيقية للرواية المغربية التي عرفت تطورا ملحوظا سيفضي بها إلى الاستقرار باعتبارها جنسا تعبيريا حديثا في المغرب، له طرائق وآليات كلاسيكية تماثل الرواية بمفهومها التقليدي الذي ازدهر في الثقافة الغربية.

وعلى هذا الأساس فإن التجارب الروائية المغربية تفاعلت مع التجارب الروائية الغربية إذ" أنها تحكي طرائق سردها وميكانيزمات اشتغالها تكنيكيا دون تكونها، لهذا فهي ذات تمثل تعبيري مختلف، وذات صور وصيغ مختلفة عما هو موجود في الرواية العالمية"[8].

لقد جاءت البداية الأولى للرواية المغربية على شكل سير ذاتية تعبر عن "الأنا الكاتبة" في علاقتها بـ"الأنا الجماعية"عن التناقضات التي عاشها المغربي في تلك المرحلة، حيث تحولت الكتابة إلى مادة حقيقة لإثارة مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية ونقل المعيش اليومي، إلا أنها كتابات اتسمت "بالعفوية التي طبعت حوافز الكتابة الأولى للرواية وهي عفوية تبدو محصورة في مستوى الأفراد"[9]، إذ ارتبطت الكتابات "الزاوية للتهامي الوزاني، و جيل الظمأ، لمحمد عزيز لحبابي بالواقع والتبعيات الاقتصادية والفكرية، والسياسية، والتي فرضها المستعمر على المجتمع المغربي، ما جعل الدراسات النقدية تختلف حول طبيعة السيرة الذاتية لنص "الزاوية" اذ اعتبرها كثير من النقاد "سيرة ذاتية يحكمها ما لم يحكم نسق التعبير الذاتي إجمالا وذلك لأنها تعبير مباشر عن ذات المؤلف الذي يتماها داخل النص مع السارد ومع الشخصية الرئيسية حتى وان كان هذا الإنجاز المبكر لم يكتمل كنص إلا على أنقاض الزاوية كمؤسسة"[10].

أما رواية في الطفولة عنوان للبداية الفعلية فلا تخرج عن هذا المدار إذ ليس غريبا أن تتخذ أول محاولة روائية على التحليلات النقدية التي تربط البنية القصصية بالبنيات المجتمعية وتجلي التأثيرات الاقتصادية الكامنة وراء الإبداع الفني.

نستنتج مما سبق أن ولادة الرواية تزامن بلحظة وعي الأنا فشكلت الذات الفردية للكاتب مادة الحكي ومرجع الكتابة، كما اقترنت البداية الأولى لمشروع الرواية المغربية بتداخل الروائي بالسير ذاتي في لحظة كان عنوانها التحولات الكبرى التي يعيشها المجتمع المغربي.

فالانتقال من عهد الاستعمار إلى عهد الاستقلال والانخراط الاجتماعي حول الهموم والتحديات دفع بالنخب الوطنية إلى تجريب أساليب جديدة في الكتابة، فجاءت الرواية السيرية لتعبر عن لحظة تبدل القيم والصراع الطبقي، وهموم الطبقة المثقفة وتأخر المجتمع المغربي وغيره من القضايا والأحداث التي عاشها المغرب في تلك المرحلة.

تعد الستينيات المولد الحقيقي للرواية المغربية ففيها تم تعميق الوعي الاجتماعي والفني، والكشف عن الصراعات الجارية على أرض الواقعي حيث ازدهر الفن الروائي وبلغ عدد الروايات ما بين 1957م-1980م أربعة وثلاثون رواية بعد حصول المغرب على الاستقلال سنة 1956م الأمر الذي أدى إلى حدوث تغيرات اجتماعية، واقتصادية، وفكرية، وسياسية هامة حركت الوعي بأهمية التاريخ ودوره البليغ في حياة كثير من الأدباء والمفكرين الذين استجابوا لمثل هذا التغيير في حياة الشعوب عن طريق التأمل والتفكير في الحاضر على ضوء الماضي مستشرفين ومتطلعين إلى مستقبل أفضل.

إذ تميز الأدب الروائي المغربي في هذه الفترة بتناوله لقضايا اجتماعية واقتصادية، وثقافية وسياسية، كاشفا عن تغييرات جديدة طرأت في بنية المجتمع، ويشهد على ذلك مضمون روايات "دفنا الماضي" 1966م لعبد الكريم غلاب، و"بوثقة الحياة" 1966م للبكري السباعي، و" جيل الضمأ" لمحمد عزيز لحبابي، و"باموا" لأحمد زياد، و"الطيبون" لمبارك ربيع، حيث تناولت هذه الأعمال القضايا الوطنية والتاريخية، وعالجت قضية الصراع بين قيم المغارة والمستعمر.

إن النصوص التي كتبت ابتداء من الستينيات إلى غاية أواسط السبعينيات كانت محكومة باختيار مواضيع اجتماعية ووطنية، كما يقول الباحث أحمد بن شريف "استجابت لتطبيق مفهوم الالتزام والواقعية كما استجابت للتغير الأدبي الذي عرفه المغرب ذلك التغيير الذي أعطى شرعية الكتابة الروائية وبوأها مكانة هامة ضمن الأجناس الأدبية والتعبيرية الأخرى رغم تجربتها"11وهذا يفيد أن الكاتب كان يتقيد في نصوصه الروائية بالطابع الواقعي، ورصد كل المشاكل التي يعيشها المجتمع، فعلى الرغم من غلبة الطابع الاجتماعي في جل الكتابات من خلال هذه الفترة إلا أ، المتن الروائي المغربي وجد في مواضيع أخرى مبتغاه، وهي مواضيع ذات الطبيعة السياسية مثل نصي " المعلم علي" و"دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب، والفكرية كروايتي " جيل الظمأ" لمحمد عزيز الحبابي، و" الغربة" لعبد الله العروي.

فيعد صدور الروايات الأولى إلى حدود نص "في الطفولة" للكاتب عبد المجيد بن جلون، سيكون المجرى الحقيقي الواقعي مفتوحا أمام الأعمال الروائية القادمة التي عبرت عن الواقع وتناقضاته، "فقبل أن يعرف أن يعرف المشروع الروائي تأسيس طبقاته التحتية على يد كل من عبد الله العروي ومحمد زفزاف ومبارك ربيع باعتبارهم رواد الواقعية بالمغرب، فقد مهد لتراكمهم الروائي نص روائي يحمل عنوان "دفنا الماضي""[12] وهو الإصدار الثانية لسبعة أبواب.

وهذا مايراه تدوروف من أن" الأجناس الأدبية تنبني من المادة اللسانية بمقدار ما تنبني من الأيديولوجية التاريخية التي حدد المجتمع دائرتها" انطلاقا من هذا التصور يمكن النظر إلى رواية "دفنا الماضي" على أنها تصف حقبة مهمة من تاريخ المجتمع المغربي، حيث أن المجال الروائي فيها أوسع بكثير" إذا كانت "سبعة أبوب" قد ركزت على ذاتية الكاتب وعلى مدى تجلي أعمالها ضمن الزمرة الصغيرة في نضالها ضد المستعمر، فإن" دفنا الماضي" حاولت أن تصف لنا حقبة معينة من الزمن يشهد فيها المجتمع تحولا كبيرا من جيل قديم إلى جيل جديد.

أثناء ذلك تصور لنا معاناة هذا الجيل الأخير لشيئين اثنين: التخلف الاجتماعي الذي كان يمثله الجيل القديم، ثم التدخل الاستعماري، كما تصور لنا أيضا كيف انتهى الصراع بانتصار الجيل الجديد على التقاليد البالية وعلى الاستعمار معا"[13].

نستنتج مما سبق أن رواية دفنا الماضي تعتبر المحور المركزي في تأصيل الرواية، هذا النموذج الروائي المستعار بحمولة ودلالة خاصة للمجتمع المغربي، سيكون بمثابة رهان للجيل القادم، والعمق الاستراتيجي لهذا التأسيس.

إن روايات : (سبعة أبواب، جيل الظمأ، في الطفولة، دفنا الماضي) ، تعد بمثابة قفزة نوعية أنجزها المشروع الروائي الحديث العهد بالولادة والتي تمثلت بشكل واضح في العبور من محور الذات إلى محور الموضوع، حيث شكلت "دفنا الماضي" علامة فارقة

ضمن سيرورة المتن الروائي الباحث عن كينونته المنشودة، إذ رصدت مجموع الانشطارات والتناقضات التي عاشها المغرب إبان الاستعمار وواقع الصراعات والمواجهات بين القوى المتعارضة، فهي نسيج أطروحي حافل بالتقابلات بين واقع المدينة وواقع القرية سواء تعلق الأمر بالشخصيات أو بالفضاءات أو بالأحداث والأزمنة التي يتشكل منها العالم الروائي في هذا العمل. فقد استجابت إستراتيجيتها للمعايير الجمالية المؤسسة للرواية الواقعية ذات النمط الروائي التقليدي من هنا اعتبرت" رواية تقليدية البناء تقوم على الحكاية والزمن الواحد المسلسل والراوي التقليدي والمطلع والعارف بكل شيء والتعليقات المباشرة والوعظ والخطابية، وتدخل المؤلف بالتعليق على الأحداث والشرح"14.

لقد جعلت رواية "دفنا الماضي"من إشكالية البحث عن الهوية الوطنية للشعب المغربي جزء لا يتجزأ من هاجس البحث عن الهوية الفنية للرواية المغربية، فكانت بذلك تدشينا لانطلاقة وعهد جديدين للمشروع الروائي العربي بالمغرب ومن هنا ستتبوأ مرتبة المعيار، حيث "اعتبر أحد الكتاب أن هذا الرواية تجسد الخصائص الكلية لرواية المغرب"، إذ أنها حققت طفرة نوعية تمثلت في نضج الأسئلة النظرية والفنية التي أسست لاستراتيجية مبنية على الحوار الثنائي مع التاريخ وخاضت معركة التجنيس عبر مراهنتها على المادة اللسانية العربية وعلى الأيديولوجية التاريخية، إذ ارتبطت هويتها الفنية بهوية الشعب المغربي، مما جعلها تتسم بالموضوعية متجاوزة معيار رواية السيرة الذاتية.

قد تم اختزال العالم في الزاوية العلمية، بعد الخربة العالميتين الأولى والثانية، وتم تحويل الانسان إلى موضوع علمي، لكن الرواية ظهرت كفن يدافع عن إنسانية الإنسان وحيوية الحياة، فهي الفن الذي يتسنى له الاكتشاف الوجود الانساني وهو الأمر الذي لا يستطيع فن أخر اكتشافه، لما لها من قابيلة لاستيعاب الأشياء المعقولة واللامعقولة، بخلاف العلوم الأخرى.'' الرواية مشروع حياة أخرى لم نعشها، لن نعيشها، قد نعيشها،قد نعجز عن أن نعيشها. وهي لا توجد حقا إلا كمشروع حياة،أي كتخييل، مع كل ما تعنيه وتحتمله هذه الكلمة[15]

تعد الستينيات المولد الحقيقي للرواية المغربية ففيها تم تعميق الوعي الاجتماعي والفني، والكشف عن الصراعات الجارية على أرض الواقع حيث ازدهر الفن الروائي وبلغ عدد الروايات ما بين 1957م-1980م أربعة وثلاثون رواية بعد حصول المغرب على الاستقلال سنة 1956م الأمر الذي أدى إلى حدوث تغيرات سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وفكرية هامة حركت الوعي بأهمية التاريخ ودوره البليغ في حياة كثير من الأدباء والمفكرين الذين استجابوا إلى مثل هذا التغيير في حياة الشعوب عن طريق التأمل والتفكير في الحاضر على ضوء الماضي مستشرفين ومتطلعين إلى مستقبل أفضل.

إذ تميز الأدب الروائي المغربي في هذه الفترة بتناوله لقضايا اجتماعية وسياسية وثقافية، كاشفا عن تغييرات جديدة طرأت في بنية المجتمع، ويشهد على ذلك مضمون روايات "دفنا الماضي" 1966م لعبد الكريم غلاب، و"بوثقة الحياة" 1966م للبكري السباعي، و" جيل الضمأ" لمحمد عزيز لحبابي، و"باموا" لأحمد زياد، و"الطيبون" لمبارك ربيع، حيث تناولت هذه الأعمال القضايا الوطنية والتاريخية، وعالجت قضية الصراع بين قيم المغاربة والمستعمر.

إن النصوص التي كتبت ابتداء من الستينيات إلى غاية أواسط السبعينيات كانت محكومة باختيار مواضيع اجتماعية ووطنية، كما يقول الباحث أحمد بن شريف "استجابت لتطبيق مفهوم الالتزام والواقعية كما استجابت للتغير الأدبي الذي عرفه المغرب ذلك التغيير الذي أعطى شرعية الكتابة الروائية وبوأها مكانة هامة ضمن الأجناس الأدبية والتعبيرية الأخرى رغم تجربتها"[16]. وهذا يفيد أن الكاتب كان يتقيد في نصوصه الروائية بالطابع الواقعي، ورصد كل المشاكل التي يعيشها المجتمع، فعلى الرغم من غلبة الطابع الاجتماعي في جل الكتابات من خلال هذه الفترة إلا أن المتن الروائي المغربي وجد في مواضيع أخرى مبتغاه، وهي مواضيع ذات

الطبيعة السياسية مثل نصي " المعلم علي" و"دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب، والفكرية كروايتي " جيل الظمأ" لمحمد عزيز الحبابي، و" الغربة" لعبد الله العروي.

ولعل النص الروائي المغربي" في الطفولة" الذي صدر سنة 1957م لعبد المجيد بنجلون وهي سيرة ذاتية يرصد فيها الكاتب طفولته بانجلترا وبالمغرب،ويقارن بين مظاهر الحياة الحضارية في الغرب ومظاهر التخلف في المغرب، أول عمل توفرت فيه مقومات الجنس الروائي ضمن خانة أدبية ظلت فارغة على مدى تاريخ تطور واستحداث الأجناس التعبيرية بالمغرب.

ورغم تراكم هذه الأعمال الروائية خلال هذه الفترة إلا أن أغلبها نشر على شكل حلقات على صفحات المنابر الوطنية، ومنها ما لم ينشر لظروف معينة، وأما النصوص أعمال أكثر تطورا فهي قليلة ومعدودة على رؤوس الأصابع:

1. "الزاوية، للتهامي الوزاني 1942م
2. في الطفولة، لعبد المجيد بنجلون 1957م
3. سبعة أبواب 1965و دفنا الماضي، م1966 لعبد الكريم غلاب".

لقد استطاعت هذه التجارب السردية أن تمثل البدايات الحقيقية للرواية المغربية التي عرفت تطورا ملحوظا سيفضي بها إلى الاستقرار باعتبارها جنسا تعبيريا حديثا في المغرب، له طرائق وآليات كلاسيكية تماثل الرواية بمفهومها التقليدي الذي ازدهر في الثقافة الغربية. وعلى هذا الأساس فإن التجارب الروائية المغربية تفاعلت مع التجارب الروائية الغربية إذ" أنها تحكي طرائق سردها وميكانيزمات اشتغالها تكنيكيا دون تكونها، لهذا فهي ذات تمثل تعبيري مختلف، وذات صور وصيغ مختلفة عما هو موجود في الرواية العالمية"[17].

II. آفاق الرواية المغربية

ومع بداية الألفية الثالثة وتطور العالم بتطور مكوناته وبروز العولمة، كان لابد من الإشارة إلى الأثر الذي خلفته الكتابات الأدبية المغربية السابقة، مع ابراز مسارات هذا التطور على المستوى الفني والأدبي والفكري .....إلخ وإظهار ملامح وعناصر الرواية العربية، في ظل التحولات التي طرأت في العالم العربي، ذلك أن الوعي الروائي بالواقع ظل مستمرا في الزمان والمكان والبحث عن وسائل جديدة للتعبير عن مستويات وتقنيات السرد، وهو تحول أقرته التطورات التي خلفتها الثورات الرقمية ووسائل الاتصال الحديثة والمعاصرة تزامنا مع التطورات المعرفية في شتى المجالات .

إن التراكم المعرفي والنصي الذي حققته ساهم في التحول الذي عرفته السرديات الكلاسيكية لينتقل إلى سرديات معاصرة منفتحة وموسعة، (ما بعد الكلاسيكية)، حيث أصبح معها السرد الروائي نسقا متكاملا تتحقق فيه وتتفاعل على أرضه العديد من الأنواع والخطابات واللغات. كما حملت هذه الرؤية الجديدة ملامح وعي الروائي بالتحولات الفنية والجمالية التي طالت الكتابة الروائية في العالم ككل.. وما مثلته من جرأة في البوح عن الحالات الشعورية للإنسان وتصويرها للعديد من المشاهد الروائية، تم طرح أسئلة جوهرية تكشف عن قضايا وثيمات تتمحور أساسًا حول الذات والهوية الفردية والجنس والسياسة والذاكرة والتمزق والهجرة والرغبة في التحرر. ومنها من واصل كتابته عن موضوعات كلاسية تتمثل في الحديث عن الجنس والهوية الاغتراب، الذات، التلاقح بين الغرب والشرق، هذا الامتداد الحاصل في الكتابة الروائية المغربية، أي؛ امتداد بين نصوص روائية جديدة وغيرها من نصوص روائية سابقة، يبين لنا مدى انفتاح السرديات الكلاسية على ما بعدها.

وبالرجوع إلى التراكم الروائي الذي حققته هذه الأصوات الروائية يمكن أن نستشف بأن الطابع المهيمن على موضوعات نصوصها الروائية يندرج بشكل عام في صلب قضايا المجتمع المغربي، لما شهده من تحولات على مستوى البنية الاجتماعية والسلوك

الفردي، مما ساهم في بروز أشكال جديدة للتطرف الاقتصادي والديني، وتفشي ظاهرة الفساد والرشوة والقهر الاجتماعي، وانهيار القيم الاخلاقية والدينية ، وتزايد الشعور بالإحباط لدى فئة الشباب إثر تفاقم البطالة.

فقد لعبت روايات الكاتب مبارك ربيع دورا طلائعيا في تطوير طرائق السرد الروائي وأشكاله بالمغرب وخاصة ما يتعلق بالجانب السيكولوجي للشخصية، واستكناه عوالمها الخفية ثم إعادة النظر في أساليب السرد المتعددة وتقنياته، لقد كان حريصا في كتاباته على خلق الانسجام والملاءمة بين الشكل والمضمون، واستثمار مكونات السرد الروائي، فجل رواياته كانت تسرد بحبكة إبداعية التفاعلات والتحولات الاجتماعية، والتاريخية، والنفسية التي عاشها المغرب.

إن الكتابة السردية لمبارك لها طابع خاص والتي لازالت تواكب المشهد الابداعي، بشكل دينامي ومتطور في بلورة الخطاب السردي الحداثي، فكان من الجدير الانكباب على دراسة التجربة الأدبية له، و إعادة قراءتها وتأملها ، فمشروعه غني وحافل، ورواياته تترجم لنا الحياة الإنسانية من خلال مصائر الشخوص وحالاتها، فهو يتمثلها ويصورها في قالب أدبي تخييلي فمثلا رواية (غرب المتوسط)، تمتد عبر مسارات سردية مهمة تحكي أحداث زمنية ماضية من تاريخ المغرب، وتعالج قضايا جوهرية ، كالهجرة، الانحلال الاخلاقي، وطرح أسئلة عميقة عن التغييرات التي لحقت المجتمع المغربي .

أما راوية محمد الأشعري (القوس والفراشة) يمكن اعتبارها اضافة نوعية للأدب المغربي لما فيها من نقد لحاضرنا الثقافي والسياسي والاجتماعي بصورة أدبية خالصة تنتصر لشعرية النص، وتروي أحداث عاشها الشعب المغربي، تمثلت في حياة ثلاثة أجيال (الجد الابن والحفيد) من أسرة آل الفرسيوي المنحدرة من قرية بومندرة بالريف والمستقرة بمدينة زرهون.

استطاع أن يضع بصمة شعرية في هذه الرواية من خلال ملامح الفضاء الزمكان. من هنا كانت دراسة وتحليل الفضاء الزمكاني أهمية كبرى بوصفه أكثر العناصر الفاعلة في خلق الفضاء الروائي؛ بسبب ارتباطه بالإنسان والواقع في تطوره المادي والمعنوي والحضاري والفكري، وكل عنصرٍ من عناصر الرواية لا تظهر أهميته إلا من خلال تفاعله مع بقية العناصر الأُخرى، وإسهامه في تجلية الفضاء الروائي. وقد استعان الكاتب بتقنيات السرد الروائي لتحقيق زمن النص، ومن أبرز تلك التقنيات الاسترجاع أو الاستذكار والاستباق، الذي أدى دوراً فنياً، فكان بحقٍّ ذاكرة النص، ومن خلاله تحايل الكاتب على الزمن السردي.

إن خطاب التخييل في النص، يلجأ من خلاله المؤلف إلى الواقع المعاش متسلحا بمجريات التاريخ والأساطير والقصص، محاولا تكييفه وفق نظرته الثاقبة ووعيه الثقافي والفكري المتقدم، وإمكانية استثماره في معرفة أدبية وفكرية تستمد قدرتها على التغيير في الوعي الإنساني من خلال ما تحمله من معانٍ وأفكار ومعلومات تاريخية متخيلة أو واقعية. فالخطاب التخييلي المستمد من الواقع والتاريخ لا يقدمه المؤلف كما هو بصوره وحقائقه، لكنه يحاول إفراغه من دلالاته المرجعية الحقيقية وملئه بدلالات أخرى مختلفة توافق السياق الخطابي التخييلي.

تعد اللغة في النص السردي المعاصر للروائي محمد الأشعري ، لغة إشارية ذات محمولات ودلالات متجددة ومتعددة، فهي انعكاس لأزمة الإنسان المعاصر و إرهاصات الواقع المعاش، وذاكرة الكاتب "الأشعري" تزدحم بالأفكار والرؤى التي تدخل في بناء نصه السردي، فثمة أفكار في ذهنه تشجعه وتحفزه على فعل الكتابة بما فيها من أسئلة وهواجس وقلق وجودي، فالكتابة عملية حفر إبداعية في الذاكرة.تسبح بنا الى مرفة حدود التداخل بين الذات(المؤلّف) والتاريخ والتخييل في النص الروائي. ثم ابراز التفاعلات داخل النص الأدبي، مع دراسة الأبعاد المرجعية في النص المتمثلة في البعد الفلسفي والنفسي الاجتماعي.... إن أي بناء لواقع متخيل يستدعي توسيع دائرته، وفهم الواقع كما نراه، ثم ابتكار الواقع المتخيل واستثماره، لما له من دور في انتاج المعرفة وبناء العلم.

لقد ارتبطت أعمال الروائيان (مبارك والأشعري) بالمجتمع المغربي مع رصدهما لتناقضاته وصراعاته العميقة، بالإضافة إلى ارتقاء أعمالهم بالأبعاد الانسانية والفلسفية الأخلاقية، فأي مشروع حقيقي لكل مبدع مرهون بإحداث قطيعة معرفية والتي أحدثت ثورة في مجال الرواية، على مستوى الأشكال والمضامين، إن أي كتابة لا تأتي من فراغ بل من طرح السؤال والبحث عن شكل جديد من الأجوبة الإبداعية.

إلى أي أفق يرسمه العمل الإبداعي كان ضمنيا أو صريحا؟ هل هذا التحول الرقمي له صدى في الأدب إبداعا وقراءة؟ لابد لنا من استحضار سؤال التقاطع والسعي إلى العودة نحو الأصل؛ أي إلى الكلمة، العلامة، البياض، إحداث سؤال علاقة الانسان بالوجود والمصير الإنساني، فالأدب يصدر عن الواقع؛ الواقعي والواقع الافتراضي الاحتمالي ضمن تعدد العوالم الممكنة، أي؛ الواقع كعلامات رمزية وتخييلية. ثم لابد أن نشير إلى كيف يتم توظيف الفضاء الروائي؟ كيف نقيس هذا التخييل وكيف يشتغل؟ وكيف نتأمله ؟ وكيف وظفه القارئ؟ ثم استخراج مظاهر المعرفة في الرواية المغربية من خلال نموذجين اثنين: المعرفة الاجتماعية والتي يمثلها مبارك ربيع ، ثم المعرفة السياسية، التاريخية ،و يمثلها محمد الأشعري.

مجمل القول أن هذه الدراسة بمثابة تسليط الضوء على النظريات الأدبية المختلفة في مجال دراسة العلوم المعرفية. من خلال استكشاف العديد من النظريات في مجال الأدب والعلوم المعرفية ، توصلنا إلى الاستنتاج التالي: قراءة الأعمال الخيالية هي عملية عقلية التي لا يمكن أن تشتغل بدونها في التحليل الأدبي المعرفي. في الواقع ، خلال تجربة القراءة ، يتمتع القارئ بتمثيلات عقلية للكون الخيالي الذي يبنيه ، كما يقرأ النص الوهمي ، حيث تعيش الشخصيات وتتفاعل وتفكر فيها.

تتضمن عملية التمثيل هذه آليات نفسية مختلفة نشطة خلال التجربة الاجتماعية للعالم الحقيقي. وهكذا ، فإن قراء الخيال ، على عكس القراء غير الخياليين أكثر اجتماعا وتعاطفا. يتفاعلون مع بيئتهم من خلال تبنيهم.

أسهمت هذه التطورات في توسيع حقل السّرديات. و تجديد مجال الأدب والنظريات، بالإضافة لما قدمته من أهمية للقارئ وعملية القراءة.

الهوامش:

[1] محمد عزام، وعي العالم الروائي دراسات في القصة المغربية، منشورات اتحاد الكتاب، 1990، ص:9

[2] المرجع نفسه ص: 9

[3] – أحمد اليبوري،تكون الخطاب الروائي ،الرواية المغربية أنموذجا، مجلة آفاق، العدد، 3-4 دجنبر 1984، ص: 13-19

[4] – محمد أمنصور، استراتيجية التجريب في الرواية المغربية المعاصرة، شركة النشر والتوزيع المدارس، 10زنقة جون بوان– الدار البيضاء،ص:11

[5] –المرجع نفسه ،ص:11

[6] – مصطفى يعلي، عبد الرحيم المؤدن، بيبليوغرافيا الفن الروائي، مجلة آفاق العدد 3-4، دجنبر، 1984، ص: 74-82.

[7] – محمد أمنصور،مرجع سابق،ص: 20

[8] – أحمد بن شريف، المتخيل في الرواية المغربية، مقاربة تحليلية لرواية الريح الشتوية، الطبعة الأولى، مارس 1999م، مطبعة الطوب ريس، طنجة، ص:18

[9] – محمد أمنصور، استراتيجية التجريب في الرواية المغربية المعاصرة، شركة النشر والتوزيع المدارس، 10زنقة جون بوان– الدار البيضاء،ص:21

[10] – المرجع نفسه ص: 21-22

[11] – أحمد بن شريف، المتخيل في الرواية المغربية، مقاربة تحليلية لرواية الريح الشتوية، الطبعة الأولى، مارس 1999م، مطبعة الطوب ريس، طنجة، ص:22

[12] – محمد أمنصور، استراتيجية التجريب في الرواية المغربية المعاصرة، شركة النشر والتوزيع المدارس، 10زنقة جون بوان– الدار البيضاء،ص:21

[13] – المرجع نفسه ،ص:40

[14] – المرجع نفسه، ص:43

– المديني أحمد، رؤية السرد فكرة النقد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1426-2006، الدار البيضاء، ص: 60[15]

[16] – أحمد بن شريف، المتخيل في الرواية المغربية، مقاربة تحليلية لرواية الريح الشتوية، الطبعة الأولى، مارس 1999م، مطبعة الطوب ريس، طنجة، ص:22

[17] – أحمد بن شريف، المتخيل في الرواية المغربية، مقاربة تحليلية لرواية الريح الشتوية، الطبعة الأولى، مارس 1999م، مطبعة الطوب ريس، طنجة، ص:18